لونجفلو

الشاعر الأميركي الملهم

بقلم مأمون اياسي

لاشك أن « هنري وودسورثو لونجفلو » الشاعر الأميركي النابه غني عن التعريف الى قراء الانجليزية ، وأن قصته الشعرية « ايفانجلين» تعد في طليعة الآثار الأدبية الخالدة التي خلّفها ، وخدمة لمن لم يقرأوا هذا الشاعر العبقري رأينا أن نكتب هذه النبذة عنه فنقدم لهم بذلك أحد الشعراء العالميين الذين يقدسهم الشعب الأميركي

* * *

ولد « لونجفلو » في ٢٧ فبراير في سنة ١٨٠٧ في مدينة « پورتلاند » في ولاية « مين » وقضى طفولته وصباه في بيت واقع في شارع « الكونجرس » ما زال الى الآن محفوظاً على حاله الأولى عند ما كان يعيش فيه الشاعر العظيم . ويحج الى ذلك البيت آلاف من الناس الذين يذهبون الى « پورتلاند » في كل صيف ، ويدخلون اليه للتفرج على كل غرفة من غرفه ، وعلى مطبخه الذي ما زالت الأواني الثقيلة مبعثرة على مواقده منذ مائة عام ونيف . ثم يصعدون الى غرفة في الدور الثالث ليروا السرير الخشبي الذي كان ينام عليه « لونجفلو » ويطلوا من النافذة التي كان يرى منها المنارة الموصوفين في إحدى قصائده

وكانت « پورتلاند» مدينة موافقة لفتى له روح « لونجفلو» الحساسة الرقيقة ، إذ كانت شوارعها الطويلة المظللة بالأشجار الوارفة ، وأحراجها المكتظة ، وشاطئها الشعري الهادىء ميداناً خصباً لخياله الواسع

كان « لونجفلو » في السادسة من عمره عندما عاد من المدرسة يوماً وناول والده شهادة — لم تزل محفوظة للآن — كتبت فيها معلمته بأنه تلميذ مجتهد وأخلاقه قويمة . وبعد ذلك بسبعة أعوام عندما كان في الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة يصف فيها إحدى المواقع المشهورة بين الأميركيين والهنود الحمر . وكان على ثقة تامة بأنها جديرة بالنشر ، فاستجمع شجاعته ورماها في صندوق إحدى الجرائد ، ولكن رئيس تحرير تلك الجريدة لم يوافقه على رأيه فكان نصيبها سلة المهملات . فما كان من الشاعر الصغير ، وقد جرحت كبرياؤه ، إلا أن أرسل القصيدة الى جريدة منافسة فنشرتها . وقد قال بعد سنين عديدة بأن الشعور الذي استولى عليه عندما رأى أول شعر له مطبوعاً لم يعاوده بعد ذلك لدى نشر أي شعر آخر

وكانت حياته الدرسية بعد ذلك نجاحا مضطرداً وتفوقاً يثير الاعجاب . وعندما أتم علومه في جامعة « بودوان » راح يلتمس من والده إرساله لقضاء سنة في جامعة « هارڤارد » واعترف له بما يجول بخاطره من آمال قائلاً : « الحقيقة يا والدي هي أنني أطمع في مستقبل أدبي حافل . إن نفسي لتتحرق شوقاً الى ذلك » ولكن والده نصحه بأن يفكر في صنعة تكفل له عيشه غير صنعة الأدب . وأرغم الشاب على النزول على إرادة والده والعمل بنصيحته ، فدخل كلية الحقوق . ولكن أحد الفتشين سمعه مرة يلقي ترجمة لمقطوعة من أصعب أشعار « هوراس » فأعجب به ، وعندما كانت الادارة تفكر في إدخال فرع جديد للغات الحديثة في برنامج الجامعة وقع اختيار ولاة الأمر على « لونجفلو » ليكون أستاذاً لذلك الفرع ، ولما يتخط عامه التاسع عشر ، ولكنهم اشترطوا عليه أن يمضي ثلاث سنوات في أوربا فيدرس لغاتها ثم يعود . ووافق والده على تزويده بالمال الكافي للقيام برحلته ، وأبحر الأستاذ الشاب الى أوربا بقلب مفعم حياة وأملاً ، فقضى ثلاث سنوات متنقلاً بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا واسبانيا وانجلترا ، فدرس لغاتها وأحوال أهلها وطرق تفكيرهم ، ثم عاد ليقوم بأعباء منصبه بنشاط وحماس ، ويتقاضى تسعمائة دولار كل شهر (وهذا المبلغ كان يعد ثروة في ذلك الحين)

لم يكن تدريسه في جامعة « بودوان » وإدارة مكتبتها ليعوق « لونجفلو » عن الكتابة شعراً ونثراً ، فواصل جهوده في النظم والتأليف ، ولكن كتاباته اقتصرت الى حد ما على الموضوعات التي كان يدرسها

وثبت اسم الشاعر في عالم الشهرة حتى أن إدارة جامعة « هارڤارد » طلبت اليه أن يتولى رياسة فرعها للغات الحديثة عند ما استقال أستاذها . فقرر « لونجفلو » القيام برحلة ثانية الى أوربا لاستزادة في درس اللغات والآداب . وعندما كان في هولندة

وصله نبأ امرأته فواصل أبحاثه ودروسه بقلب مثقل بالهم والحزن

وهنالك نادرة تحكى عنه عند ما عاد من أوروبا ليتولى عمله فى «هارڤارد» ، وكان فى الثلاثين من عمره ، ولكن هيئته لم تكن لتدل على ذلك ، فذهب الى « بنسيون » ليستأجر غرفة فيه ، فنظرت اليه صاحبة « البنسيون » من رأسه الى قدمه وقالت له : « أنا لا أقبل تلامذة عندى» ولكنه قال لها « لست تلميذاً » . أنا الأستاذ «لونجفلو» . فما كان من السيدة إلا أن قالت له وهى تفتح الباب على مصراعيه : « إذا كنت مؤلف « وراء البحار » فتفضل على الرحب والسعة » — « ووراء البحار »هو الكتاب الذى وضعه أثر رحلته الأولى الى أوروبا ، ووصف فيه تلك السلسلة من الأسفار فى بلدانها — وقادته السيدة الى غرفة فى الزاوية الشرقية فى منزلها قائلة « كانت هذه غرفة الجنرال وشنجطن ويمكنك أن تنزل فيها . » وبقيت تلك الغرفة مسكنه طوال السبع عشرة سنة التى قضاها فى « هارڤارد »

وفى سنة ١٨٤٢ قام برحلته الثالثة الى القارة الأوربية . وبعد ذلك بسنة تزوج مرة ثانية وقضى ثمانى عشرة سنة فى هدوء بين أطفاله وعائلته وأصحابه والقصائد التى كان ينظمها تترى

* * *

دُعى الكاتب الأمريكى المعروف « ناثانيال هوثورن » مرة الى الغداء على مائدة « لونجفلو » مع صديق للأول . ودار الحديث على الغداء حول قصة جرت وقائعها بين «نوقاسكوتيا» — وهى شبه جزيرة ملحقة بكندا — والولايات الأمريكية الشرقية . فقال صديق «هوثورن» مخاطباً «لونجفلو» « أنا أجرب أن أقنع « هوثورن » بكتابة قصة عن الحادثة ، ولكنه لا يرى فيها فكرة لقصة »

فسأله « لونجفلو » أن يسرد على مسامعه تلك الحادثة علّه يجد فيها المواد لقصيدة أو أنشودة

ولخص له الصديق الحادث بقوله : « كانت مقاطعة « نوقاسكوتيا » التى كان يسميها الفرنسيون « أكادى » تنتقل من أيدى الفرنسيين الى الانجليز ثم يسترجعها الفرنسيون ، وهكذا الى سنة ١٧١٣ ، إذ انتقلت الى الانجليز بموجب معاهدة « أوترخت » ، وهى باقية تحت سلطتهم الى يومنا هذا . وكان يغلب على سكانها الدم الفرنسى . فنشأت عداوة بين العنصرين الانجليزى والفرنسى ، أدّت الى منازعات ومناوشات دائمة .

وتفاقمت الحال فى شبه الجزيرة حتى أصبح من الصعب جداً على الحكومة تهدئتها ، فاستنبطت حيلة لم تحسد أنفع منها فى تلك الأحوال ، وهى نقل «الأكاديين» الى جهات أخرى من أمريكا الشمالية حيث لا يتيسر لهم الأجتماع بالسكان الانجليز . وكانت الطريقة التى نقل بواسطتها أولئك الساكنين غاية فى الغلظة والفظاظة . طلب الحاكم الى جميع الرجال والفتيان الذين تزيد سنهم على العشر سنوات أن يجتمعوا فى الكنيسة ، لأنه سيذيع عليهم أوامر هامة من السلطة . واجتمع الرجال والفتيان ، وهم يتساءلون عما أوجب حشدهم بتلك الطريقة ، وما أن دخلوا الكنيسة حتى حاصرتهم الجنود من الخارج ، وألقى الكاهن على مسامعهم الأمر الرهيب بصوت ملأه حنواً ورأفة . وفى مدة قصيرة كانت السفن حاضرة على الشواطىء ، فحشد فيها السكان بطريقة عسكرية قاسية كان من نتائجها أن تفرقت أسر كثيرة ، وأضاع أفرادها بعضهم بعضاً

وكان بين الذين نقلوا الى الولايات الشرقية فتى وصبية كان الكاهن قد عقد قرانهما فى ذلك الصباح فقط . فأضاع أحدهما الآخر ، وبقيت « ايفانجلين » تجوب السهول والقفار وتقطع الأنهار ، وتنام الليالى على الطوى كل حياتها باحثة عن « جابريال» الى أن انخرطت فى سلك الممرضات ، بعد أن قطعت الأمل من وجوده ، وإذا بها يوماً تلتقى به بين المرضى ، فعرفته برغم التغير العظيم الذى طرأ عليه . وكانت صدمة عنيفة أودت بحياته لضعفه ، وأودت بحياتها هى لسرورها وحزنها المتعاقبين

وما انتهى الصديق من سرد قصته حتى التفت « لونجفلو » الى « هوثورن » قائلاً : « أتعدنى يا لا تكتب شيئاً عن هذه الحادثة حتى انتهى من نظم قصيدتى ؟ » ووعد « هوثورن » وبدأ « لونجفلو » فى نظم القصيدة التى خلد فيها بطلى ذلك الحادث ، فخلداه بدورهما ، وجعلت « ايفانجلين » اسمه يطبع بحروف كبيرة على صفحات الجرائد ، وتتوارد عليه رسائل الأعجاب تترى

ومن الغريب أن « لونجفلو » لم ير قط مشاهد قصيدته ، مع أن الوصف فيها كان مطابقاً للحقيقة كأشهد الذين سكنوا تلك الأمكنة

وقد اقتبست من قصة « ايفانجلين » رواية سينمائية أخرجت فى عهد السينما الصامتة ، وقامت بالدور الأول فيها الممثلة المكسيكية الفاتنة « دولوريس دلريو »

بيروت مأمون اياسى